جهود حازم القرطاجني في قراءة التراث والتنظير للأدب

بوده العيد (سنة ثالثة دكتوراه)
أ.د العيد جلولي
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

الملخص :

يحاول الباحث الوقوف على تجربة نقدية متكاملة، استطاعت أن تستقبل مختلف الدروس و النظريات،واستخلصتها لنفسها في سبيل الخروج بتصور شمولي يمكن أن ترحب به مختلف الثقافات.لا سيما وأن الرؤية الحازمية تمكنت من تقديم طروحات عالمية،ومفاهيم شاملة فيما يتعلق بالعديد من موضوعات النقد.على غرار موضوع البلاغة الشعرية،ومفهوم الشعر،ونظرية التلقي،ومسألة التخييل.وما إلى ذلك من مواضيع،من خلال الاستعانة بشروح الفلاسفة العرب،لكتابي فن الشعر والخطابة الأرسطيين.وبالإطلاع التراث الأدبي ،وهو مايزكيه رأي الدكتور جابر عصفور الذي نوّه بتكامل المفهوم النقدي عند حازم القرطاجني، واعتبره التركيب لمختلف المحاولات النقدية السابقة،في إطار شمولية تستوعب سائر المعطيات النقدية.

الكلمات المفتاحية: التنظير،حازم القرطاجني،منهاج البلغاء،الأدب،النقد،المفاهيم،الشمولية

Summary:

The researcher attempts to identify the completeness of the establishment of criticism and literature through the experience of Hazem Carthagini, describing his theories on the following themes: poetic rhetoric, concept of poetry, reception, imagination. According to Dr. Jaber Asfour
Keywords: Endoscopy, Hazem Carthagini, Literature, Critical, Concepts, Inclusion, Platform of the Plague

Résume

Le chercheur tente d'identifier l'exhaustivité de l'établissement de la critique et de la littérature à travers l'expérience de Hazem Carthagini, en décrivant ses théories sur les thèmes suivants: rhétorique poétique, concept de poésie, de réception, d'imagination. Selon le Dr Jaber Asfour
Mots-clés: Endoscopie, Hazem Carthagini, Littérature, Critique, Concepts, Inclusion, La plate-forme de la peste

- مدخل إلى الموضوع

إن الحديث عن حازم القرطاجني وعن تلك التجربة الأدبية والنقدية الناضجة،هو حديث في الوقت نفسه عن بصمات المدرسة المغربية - أو المغاربية بتعبير آخر- في مضمار الأدب العربي. هذه المدرسة التي استطاعت أن تسجل حضورها المتميز في سياق الدراسات الأدبية،رغم قصر السن واختلاف الظروف والمعطيات التي أحاطت بتكونها.مقارنة بالمدرسة المشرقية التي سبقتها بقرون وأجيال .فحازم القرطاجني وكما سنرى،يجد نفسه أمام مسؤولية ثقيلة،من خلال محاولته تحقيق حلم ابن سينا في استكمال ما لم يتمه المعلم الأول أرسطو، في كتابه الموسوم" بفن الشعر" وهو بهذا سيقوم بتجاوز النقص الحاصل في كتاب أرسطو بطبيعة الحال،وكتحصيل حاصل هو تكميل لمشروع هذا المعلم. ومن ثمة فإننا نقترح بكل بتواضع أن يلقب حازم بـــ: **أرسطو العرب**.

إن كتاب :منهاج البلغاء وسراج الأدباء،في حد ذاته يمثل قيمة مبتدعة في التأليف النقدي المغربي خصوصا والعربي بوجه أعم،ويتجلى ذلك في النمط الذي اتخذه شكل الكتاب المتناسق في ترتيبه من حيث التبويب،وعنوانات القرطاجني المتفردة بالإضاءة والتنوير والمعرف الدال والمأم.إلى جانب أسلوب الكتابة الذي لا يسهل على باحث مبتدئ ككاتب هذه السطور أن يبلغ عمقه بسهولة،نظرا للحضور العقلي والفلسفي الواضح في الرؤية النقدية لحازم.هذه الرؤية التي حاولت في الكثير من الأحيان أن تقدم طروحات عالمية ومفاهيم شاملة،فيما يتعلق بالعديد من موضوعات النقد،ومن ذلك : ماهية الشعر،والتصور البلاغي،ونظرية التلقي،و التخييل وما إلى ذلك.ومرد هذا إلى انفتاح القرطاجني على مختلف التراكمات الفكرية العلمية التي سبقته،سواءً الهيلينية منها،أو اليونانية.وذلك من خلال شروح الفلاسفة العرب لكتابي: فن الشعر والخطابة الأرسطيين،لدى كل من الفارابي وابن سينا وابن رشد.أو الإفادة من موروثات الثقافة العربية من خلال إطلاعه على ذلك التراث الأدبي الثقيل الذي خلفه الأسلاف،وهذا ما يجعلنا نقف مع حازم على تجربة نقدية متكاملة،استطاعت أن تستقبل مختلف الدروس و النظريات،وحاولت من خلالها أن تخرج لنا بتصور شمولي يمكن أن ترحب به مختلف الثقافات.

لا أدعي من خلال هذه الوقفات النقدية المتواضعة،الإحاطة بكل الجوانب التي تضمنها المشروع التنظيري لحازم بوصفه عبقرية مغربية وعربية سامقة،لكنني سأحاول من خلال استضافة هذه التجربة أن أسلط الضوء على ذلك التلاقح الفكري الذي بلغه حازم في أهم الطروحات.وسأقوم أولا بالتعرض إلى أهم الظروف والدوافع والمعطيات التي واكبت التجربة الحازمية،وسأتحدث ثانيا عن ماهية الشعر عند حازم ويليه كلام حول البلاغة في فكر حازم.أما رابع المحاور فسيتعرض للرؤية الحازمية في كل من موضوع المحاكاة والتخييل،ليكون الختام مع نظرية التلقي عند القرطاجني.

- الظروف والدوافع التي أحاطت بتجربة حازم

ولد حازم القرطاجني سنة 608 هـ ، وهي السنة التي شهدت بداية سقوط الأندلس على يد المد المسيحي،فكانت واقعة العقاب سنة 609هـ ، وتلاها سقوط قرطبة سنة 633هـ ،وتعرضت خلالها المراكز العلمية إلى المحاربة،فضعف إشعاعها العلمي. وفي ظل هذا القلق السياسي والحالة الثقافية المرتبكة،ظهر مفهوم مغلوط للبلاغة.بالإضافة إلى اختلال مفهوم الشعر لدى الشعراء وبروز طائفة من دعاة الشعر،ولا حظ لهم من صناعته.ناهيك عن انتكاسة الإبداع والدراسة الأدبية في عصره بسبب الجهل واختلال الطباع،وفساد الذائقة الأدبية.فأصبح أمر الشعر عند بعض الناس نقصا وسفاهة،يقول حازم في هذا الصدد: "... الطباع منذ اختلت،والأفكار منذ قصرت،والعناية بهذه الصناعة منذ قلت،وتحسين كل من المدعين صناعة الشعر،ظنه بطبعه وظنه أنه لا يحتاج في الشعر إلى أكثر من الطبع،وبنيته على أن كل كلام مقفى وموزن شعر،جهالة منه أن الطباع قد داخلها من الاختلال والفساد أضعاف ما تداخل الألسنة من اللحن، فهي تستجيد الغث، وتستغيث الجيد من الكلام مالم تقمع بردها إلى اعتبار الكلام بالقوانين البلاغية ،فيعلم بذلك ما يحسن وما لا يحسن"(1)

"...أما الاستعداد الذي يكون بأن يعتقد فضل قول الشاعر وصدعه بالحكمة فيما يقوله،فإنه معدوم بالجملة في هذا الزمان،بل كثير من أنذال العالم وما أكثرهم يعتقد أن الشعر نقص وسفاهة"(2).

وقد أرجع حازم هذا التعاطي السلبي مع القصيدة الشعرية إلى خلل في طباع البشر في حد ذاتهم وليس إلى طبيعة الشعر كما زعم الناس،حيث يقول: "وإنما هان الشعر على الناس هذا الهوان لعجمة في ألسنتهم،واختلال طباعهم،فغابت عنهم أسرار الكلام وبدائعه المحركة جملة،فصرفوا النقص إلى الصناعة.والنقص بالحقيقة راجع إليهم وموجود فيهم".(3)

وقد وصل فساد الطباع بالناس إلى عدم القدرة على التمييز بين الشاعر المحسن والشاعر المسيء في نظمه،حتى أن الشعراء صاروا يُغرقون في المديح،أو مايسميه حازم "شعر الاسترفاد" وقد عبر عن ذلك : "ولكثرة القائلين المغالطين في دعوى النظم،وقلة العارفين بصحة دعواهم من بطلانها لم يفرق الناس بين المسيء المسف إلى الاسترفاد بما يحدثه وبين المحسن المترفع عن الاسترفاد بالشعر،فجعلوا قيمتهما متساوية بل ربما نسبوا إلى المسيء إحسان المحسن،وإلى المحسن إساءة المسيء". (4)

وقد أدى وقوف الناس من الشعر هذا الموقف إعراض العارفين بالشعر عن النظم،خوفا من أن يعد إحسانهم إسفافا.يقول القرطاجني :"فصارت نفوس العارفين بهذه الصنعة بعض المعرفة أيضا تستقذر التحلي بهذه الصناعة،إذ نجسها أولئك الأخساء واشتبه على الناس أمرهم وأمر أضدادهم. فأجروهم مجرى واحدا من الاستهانة بهم". (5)

هنا يقوم حازم بعقد مقارنة حول وضع الشعر بين زمانه وعهود الشعر الغابرة،واقفا على الفروق النوعية فقال:"وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر واعتقادهم فيها ضد ما اعتقده هؤلاء الزعانفة،على حال قد نبه عليها ابن سينا فقال: كان الشاعر في القديم ينزل منزلة النبي،فيُعْتَقَد قوله،ويُصَدّق حكمه،ويُؤْمن بكهانته.فانظر إلى تفاوت ما بين الحالين،حال كان ينزل فيها أشرف منزلة العالم،وأفضلهم حال.وحال صار ينزل فيها منزلة أخس العالم وأنقصهم".(6)

لذلك أتى حازم برؤية إصلاحية في توجهه النقدي،هدفها الارتقاء بأذواق الناس وإصلاح الفساد الذي مس طبائعهم.وفي مضمار التأسيس لذلك المشروع التنظيري،ومن خلال شروح الفلاسفة المسلمين تبين لحازم أن أرسطو من خلال كتابه فن الشعر حاول إقامة علم خاص بالشعر عند اليونان،وعلم الشعر المطلق؛أي كليات الشعر التي تشترك فيها أشعار الأمم جميعا.ولما كان هذا الكتاب قد وصل ناقصا للعرب فقد سعى الفلاسفة المسلمون لتدارك هذا النقص،فتمنى ابن سينا في نهاية شرحه أن تتاح له الفرصة للابتداع في علم الشعر المطلق،فقال حازم: "فإن أبا علي ابن سينا قد قال عند فراغه من تلخيص القدر الذي وجد في هذه البلاد من كتاب الشعر،للمعلم الأول وقد بقي منه شطر صالح.ولا يبعد أن نجتهد نحن فنبتدع في علم الشعر المطلق،وفي علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان كلاما شديد التحصيل والتفصيل،وأما ههنا فلنقتصر على هذا المبلغ".(7) فقد شعر حازم بوجود مهمة تنتظر الانجاز ليحقق بذلك حلم ابن سينا فقال: "وقد ذكرت في هذا الكتاب،من تفاصيل هذه الصنعة ما أرجوا أنه من جملة ما أشار إليه أبو علي بن سينا".(8) ولقد شعر حازم بأن القوانين التي استخلصها أرسطو من الشعر اليوناني لا تستوعب الشعر العربي، ولا تستطيع ضبط الخصوصية التي تميز هذه الشعرية.ومن ثم رأى أنه في حاجة لزيادة قوانين شعرية جديدة مفيدا في ذلك من نصوص الشعر العربي،والمنجزات النقدية التي راكمها النقاد العرب السابقون. إذ: "لو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات،واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني،وحسن تصرفهم في وضع الألفاظ بإزائها وفي أحكام مبانيها واقتراناتها،ولطف التفاتاتهم وتتميماتهم واستطراداتهم وحسن مآخذهم ومنازعهم،وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية"(9)وقد انتهى حازم من خلال شروح الفلاسفة إلى أن أرسطو قد وضع قوانين الشعر اليوناني بحسب مذاهب اليونان فيه فقال: فإن الحكيم ارسطاطاليس إن كان اعتنى بالشعر بحسب مذاهب اليونانية؛إنما كانت أغراضا محدودة في أوزان مخصوصة،ومدار جل أشعارهم على خرافات كانوا يصنعونها،ويفرضون فيها وجود أشياء موجودة،نحوا من أمثال كليلة ودمنة،ونحوا مما ذكره النابغة من حديث الحية وصاحبها.وكانت لهم طريقة أيضا يذكرون فيها اشتغال أمور الزمان وتصاريفه،وتنقل الدول وما تجري عليه أحوال الناس وتؤول إليه".(10)

- ماهية الشعر عند حازم القرطاجني

تعريف حازم للشعر كان ذا علاقة وثيقة بالحالة الثقافية التي تولدت منها تجربته النقدية،فحقيقة الشعر عند القرطاجني تكمن في العمل على الارتقاء بمستوى الناس من الناحية الفنية؛لأن الارتقاء بمستوى المتلقين هو واجب أخلاقي،وليس عملا عاديا بسيطا (11) لأن حازما وُجِد في زمن فُقِدت فيه القدرة على التمييز بين الجيد والرديء،ولم يُحفَل فيه بالإبداع الشعري،ولا الذائقة الأدبية.وعليه فإن الفائدة من قول الشعر من خلال هذا المنطلق هو جذب المنفعة والطمأنينة،إلى جانب إدخال اللذة والمتعة والطموح،نحو الجودة أو نحو الجمال.

-ومن هذا الباب فقد تصور حازم للشعر أهدافا قصديه،ووظائف محددة.ولم ير الشعر أمرا خاصا أو شخصيا،فقد قدم أربعة معايير نقدية تمثل التصور الايجابي والسلبي للشعر وهي: الدين والعقل والشجاعة،والحظ العاجل.(فالشعر هنا له أبعاد أخلاقية)(12) وتوصل حازم من خلال القواعد العامة التي تناولها،بأن الشعر تميز بخاصتي النفع أو الضرر،وقد خذ حازم من ابن سينا أهداف الشعر وغاياته.(13)

"...الشعر كلام مخيل موزون،مختص في لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك،والتئامه مع مقدمات مخيلة صادقة كانت أو كاذبة،ولا يشترط فيها بما هي شعر غير التخييل". (14)

ولنا في هذا التعريف جملة من الملاحظات :

أولا : تأثر حازم بابن سينا في عدم اعتبار الوزن منفردا أو التخييل منفردا كافيين للشعر،بل لابد من اجتماعهما.حيث يقول ابن سينا: "وقد تكون أقاويل منثورة مخيلة،وقد تكون أوزانا غير مخيلة لأنها ساذجة،بل قول.وإنما يوجد الشعر بأن يجتمع فيه القول المخيل والوزن،وإنما استقى ابن سينا الملاحظة من أرسطو،لأنه كان بصدد عرض ما قاله أرسطو حول ما يستحق لقب شاعر. فهل هو المحاكي أو الذي يستخدم الوزن؟ فقال : والواقع أن من ينظم نظرية في الطب أو الطبيعة يسمى عادة شاعرا،ورغم ذلك فلا وجه للمقارنة بين هوميروس وانباذوقليس إلا في الوزن،ولهذا يخلق بنا أن نسمي أحدهما (هوميروس) شاعرا،والآخر طبيعيا أولى منه شاعرا .

ثانيا: تعريف حازم أقرب إلى مفهوم ظاهرة الشعر عموما،منه إلى تعريف خاص بالشعر العربي. ودليل ذلك أنه قدم تعريفا عاما،يصدق على شعر كل أمة؛وهو أنه كلام موزون مخيل.وبما أن التقفية ركن في الشعر العربي،أضاف بأنه مختص في لسان العرب بالتقفية.ويقول حازم : "إنما احتجت إلى إثبات وقوع الأقاويل الصادقة في الشعر لأرفع الشبهة الداخلة في ذلك على قوم،حيث ظنوا أن الأقاويل الشعرية لا تكون إلا كاذبة،وهذا قول فاسد قد رده أبو علي ابن سينا في غير ما موضع في كتبه؛لأن الاعتبار في الشعر إنما هو التخييل في أي مادة اتفق،لايشترط في ذلك صدق ولا كذب ... لأن صنعة الشاعر هي جودة التأليف وحسن المحاكاة،وموضوعها الألفاظ وما تدل عليه"(15).(يقصد بكلمة قوم طائفة من المتكلمين الذين فسروا قوله تعالى(هو شاعر بل هو كاذب) يقول الكفوي :"والشاعر في القرآن عبارة عن الكاذب بالطبع،ولكون الشعر مقر الكذب قيل أحسن الشعر أكذبه".

وفي هذا التعريف رد على طائفة من المناطقة،من بينهم الفارابي الذي يقول:"وقد يمكن أن تقسم القياسات وبالجملة الأقاويل بقسمة أخرى،فيقال أن الأقاويل إما أن تكون صادقة لا محالة بالكل وإما أن تكون كاذبة لا محالة بالكل،وإما أن تكون صادقة بالأكثر كاذبة بالأقل،وإما عكس ذلك وإما أن تكون متساوية الصدق والكذب.فالصادقة بالكل لا محالة هي البرهانية،والصادقة بالبعض على الأكثر هي الجدلية،والصادقة بالمساواة فهي الخطبية،والصادقة بالبعض على الأقل فهي السوفسطائية،والكاذبة بالكل لا محالة فهي الشعرية"(16).

وحازم يخالف الفارابي في كون الخطابة متساوية الصدق والكذب؛لأن قوام الخطابة هو الإقناع، وهو مناقض للأقاويل الصادقة.إذ الإقناع بعيد من التصديق في الرتبة،يخالفه في أن الأقاويل الشعرية كاذبة لا محالة،لأن الشعر يتقوم

بالتخييل وهذا لا يناقض اليقين،فقد يكون القول صادقا ولا يخيل على حقيقته،فمفارقة الشعر لبقية الأقاويل ليس بالصدق والكذب،ولكن بقيامه على التخييل والمحاكاة".(17)

- البلاغة العربية في فكر حازم

البلاغة كمفهوم عند حازم يعني علوم النقد مجتمعة،وهي من هذا التصور تهتم بدراسة مهمة العمل الأدبي ثقافيا واجتماعيا،وتتكب على دراسة الأدوات التعبيرية التي يتم توظيفها لبناء الماهية ولتحقيق المهمة ،فهنا البلاغة مفهوم متسع وشامل عند حازم ويقوم على أساسين:

- الماهية: تتحقق على مستوى ذات المبدع،والأساس الخفي للعمل الأدبي ومغزاه.

- المهمة: تكمن في تأثير العمل الأدبي في المتلقي،وحازم يركز على هذه الوظيفة التأثيرية القائمة على غرز قيمة في المتلقي،أو إقناعه بقضية أو حمله على أخذ موقف،والمهمة توجيهية بالأساس.

يعترف حازم بأن محاولاته التنظيرية في النقد والبلاغة لا تعتبر فريدة،بل سبقتها محاولات علماء نابهين قبله : "وقد نقل الرواة من ذلك الشيء الكثير، لكنه مفرق في الكتب لوتتبعه متتبع متمكن من الكتب الواقع فيها ذلك لاستخرج منه علما كثيرا،موافقا للقوانين التي وضعها البلغاء في هذه الصناعة"(18).ومن هذا التعريف نستنتج مايلي :

- إن تصور حازم للبلاغة محكوم بنظرة فلسفية،نظرا للحال التي آلت إليها البلاغة العربية من عقم فكري،فوضع نظرية جديدة لأصول العملية الشعرية ضبطا لمعطيات العمل الشعري على كافة مستوياته الشكلية والمضمونية،وقد أسعفته قدرته المنطقية الفلسفية في ذلك - وكل هذا يعبر قرءاة لمحمد أديوان في مقاله الموسوم :الخطاب البلاغي عند حازم القرطاجني.

- حازم مشغول بإقامة بلاغة الشعر أكثر من أي شيء آخر،فهو يعالج البلاغة من زاوية الشعر وهو يراها علما لسانيا يهتم بجانب القيمة،التي يتوصل بها إلى معرفة الأحوال التي تقوم بها صناعة الشعر على مستوى إبداعه وتلقيه.

- حازم لاينظر إلى الألفاظ من الناحية المألوفة عند علماء النقد والبلاغة فحسب،وإنما نحى بها نحو أبحاث المناطقة،وتكلم أيضا عن المعاني كلاما مستفيضا ولكنه خرج به إلى ناحية منطقية غالية حتى أخرجه إلى دائرة المنطق.وخرج به عن البلاغة بأساليبها المعروفة في الدرس البلاغي العربي،إلا أنه لم يتكلم لا من قريب ولا من بعيد عن علم البيان،ولم يفصل لعلم البديع فصلا خاصا به،وإنما تناوله على أنه لون من الألوان البلاغية يمكن أن يتبع أي قسم من أقسام الكتاب المفصلة(19) وقد حاول حازم الخروج بالبلاغة من حيز المحلية إلى العالمية،فهو يقصد التكلم عن قوانين الشعر المطلق الذي يتعدى حدود الزمان والمكان،وحاول تجاوز التقصير الذي وقع فيه أرسطو من ناحية تقدم الزمن،لكونه لم يطلع على أساليب لغة العرب وفنونها الكلامية،إذ أنه لو إطلع عليها لكان زاد على ما وضع من القوانين الشعرية،كما حاول حازم الخروج بالبلاغة من إطارها القديم إلى إطارها الجديد،حيث كانت البلاغة القديمة تهتم بالبحث في وجوه الإعجاز في الأسلوب القرآني ... فعمد إلى تغيير وجهتها تغييرا تاما؛حيث حولها من مجال البحث في الإعجاز والنثر،إلى البحث في الشع، فخالف بذلك الذين سبقوه حتى أرسطو(20) وبما أن البلاغة اليونانية تهتم بالتشويق والإثارة فإن حازما اعتمدها في جميع أبحاثه البلاغية دون الاعتماد على العنصر العربي الذي يبحث عن الوجوه التي يكون فيها الكلام،وكيفية وصوله إلى الإفهام ومراعاة مقتضى الأحوال في ذلك،لذا جاء كلامه في البلاغة شديد الغموض.

- البلاغة هي العلم الكلي الذي يهيمن على غيره من بقية علوم اللسان،فالألفاظ والمعاني والبحور والقوافي والنحو والمتون اللغوية وكل ماهو مؤلف للكلام الشعري أو متصل به،فهو لابد أن يخضع للدرس البلاغي من وجهة نظر حازم(21) ومنة هنا يرى حازم بأن البلاغيين هم أهل المعرفة الحقة في علم العروض،حتى وإن كان العروضيين هم أهل هذا المجال.حيث يقول: "فإن الصناعة(أي البلاغة)لا يليق بها أن تخرج إلى محض صناعات اللسان الجزئية،وأن

تستقصى فيها تفاصيل تلك الصناعات...وأكثر ما تكلم البليغ أيضا في قوانين كلية يمكن أن يستنبط منها أشياء في صناعات اللسان الجزئية،فلهذا وكلنا ذكر ما وقع من تغيير تغيير في عروض وضرب ووزن لصاحب صناعة العروض فليتصفح هناك".(22)

ويستطرد قائلا: "فهذا الذي قلته في مجاري الأوزان ومجاري تركيبها،وما يسوغ فيها الرأي الصحيح الذي تعضده الآراء البلاغية والقوانين الموسيقية،ويشهد به الذوق الصحيح والسماع الشائع عن فصحاء العرب،فدونك ماغيّره أو وضعه العروضيين أو الرواة من الأبيات المضمحلة التي لا يوجد لها نظير في الأشعار الفصيحة الصحيحة الرواية.فقد رد بعض العروضيين ما استشهد به بعضهم من الأبيات الفاسدة،وزين بعضهم من شواهد بعض،وكثير أيضا مما وضع واختلف أو غير جاز عليهم وعلى أكثرهم،فلهذا يجب أن لا يقبل شيء يخالف ما قلناه لأنّنا وضعنا هذه القوانين بحسب ما شهدت به أصول علوم جليلة،بها يتميز الصريح المحض من الزائف البهرج في كل مذهب من مذاهب اللسان ومآخذ البيان".(23)

- الرؤية الحازمية للمحاكاة والتخييل

أولا :المحاكاة:

حازم لم يُفِدْ الكثير حول المحاكاة،إذ لم استطع أن أقف له على تعريف محدد لهذا الموضوع فهو يربط دائما بين المحاكاة والتشبيه ،حيث يمكن اعتبار الفرق بين المحاكاة والتشبيه فرقا بين أصل وفرع؛لأن التشبيه فرع من فروع المحاكاة القولية،وهذا النوع فرع من فروع المحاكاة عموما لذلك يسمي حازم التشبيه محاكاة تشبيهية.وقد صرف جل جهوده للبحث في المحاكاة التشبيهية ولم يتحدث عن أصناف المحاكيات القولية (24) ويفترض أن حازما رجع إلى مصادر لا تخرج عن التشبيه والاستعارة وما تركب منها أو تفرع عنها،يقول ابن سينا : ":المحاكيات ثلاثة تشبيه ،واستعارة،وتركيب. ويقول ابن رشد : وأصناف التخييل والتشبيه اثنان بسيطان،وثالث مركب منهما.البسيطين هما التشبيه والاستعارة ويسميهما الإبدال دون أن يشرح الإبدال،والإبدال عند ابن سينا هو الاستعارة والمجاز".(25)

أقسام المحاكيات التشبيهية: محاكاة موجود بموجود،ومحاكاة موجود بمفروض الوجود.يقول حازم: "ينبغي أن يُنْظَر في المحاكاة التشبيهية من جهات،فمن ذلك جهة الوجود والفرض،وينبغي أن تكون المحاكاة على الوجه المختار بأمر موجود لا مفروض."(26)

ويقصد هنا حازم أن المشبه به ينبغي ألا يكون أمرا يفترض من الشاعر،وإنما ينبغي أن يكون أمرا موجودا في الحقيقة؛لأن المحاكاة بأمر مفروض لا يتفرع عنها شيء،بالإضافة إلى أنها محاكاة على غير الوجه المختار.وهذا الطي يسميه ابن سينا محاكاة بما ليس له وجود،وهو ما يسميه ابن رشد محاكاة بغير ممكن.ويقع في مقابل المستحيل عند أرسطو ،ولعل الذي جعل حازم يقف على هذا التقسيم،أنه وجد ابن سينا يقسم الأمثلة على هاذين الضربين.وحازم يعد الأمثلة ضرب من ضروب المحاكاة،فكأنه قاس هذا على تلك.والذي أوحى إلى ابن سينا هذا التقسيم ماقاله أرسطو : المثل نوعان: نوع يقوم في رواية الأمور التي حدثت من قبل،والثاني في اختراع الإنسان لها (أي الأمور المفترضة).

يقول حازم القرطاجني:"محاكاة الموجود بالموجود لا تخلو من أن تكون محاكاة شيء بما هو من جنسه،أو محاكاة شيء بما ليس من جنسه،ومحاكاة غير الجنس لا تخلو من أن تكون محاكاة محسوس بمحسوس أو محاكاة محسوس بغير محسوس،أو غير محسوس بمحسوس ... وكل ذلك لا يخلو من أن يكون محاكاة معتاد بمعتاد أو مستغرب بمستغرب أو مستغرب بمعتاد.وكلما قرب الشيء مما يحاكي به كان أوضح شبها،وكلما اقتربت الغرابة والتعجيب بالتخييل كان أبدى"(27)

ثانيا: التخييل:

عرف حازم التخييل فقال: "التخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه،أو أسلوبه ونظامه،وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها،أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة الانبساط أو الانقباض." (28)

يمكن تبرير هذا التعريف بالقول أن التخييل هو أن يتمثل للسامع من كلام الشاعر وتقوم في خياله صور يتأثر لها إلى جهة من الانقباض أو الانبساط،ومن هنا يبدو لنا تأسس هذا التعريف على كلام المناطقة في تعريف المخيلات،إذ قالوا: وأما المخيلات فهي قضايا تقال قولا،وتؤثر في النفس تأثيرا عجيبا من قبض وبسط .

أما تعريف حازم فإنه يعود إلى ما قاله ابن سينا في تعريف التخييل،وذلك قوله في فن الشعر من كتاب الشفاء: "والمخيل هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط عن أمور،وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار،وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسانيا غير فكري،سواء كان المقول مصدقا به أو غير مصدق ...وهذا يعني أن الناس للتخيل أطوع منهم للتصديق،لذلك لك تكن العبرة في الشعر بالمادة ولكن بالتخيل".(29)

ويعود أيضا إلى ماقاله الفارابي من أن التخييل إما تخييل للشيء نفسه،وإما تخييله في شيء آخر.

ومن كلام حازم نفهم أن التخييل أعم من المحاكاة،فعلاقته بها علاقة أصل بفرع؛لأنه قدي قع التأثير والانفعال من غير روية بطرق أخرى من طرق التخييل،وقد ذكر حازم هذه الطرق فقال: "وطرق وقوع التخييل في النفس إما أن تكون بأن يتصور في الذهن شيء من طرق الفكر وخطرات البال،أو بأن تشاهد شيئا فتذكر به شيئا،أو بأن يحاكي لها الشيء بتصوير نحتي أو خطي أو ما يجري مجرى ذلك،أو يحاكي لها صوته أو فعله أو هيئته بما يشبه ذلك من صوت أو فعل أو هيئة،أو بأن يحاكي لها معنى بقول يخيله لها،وهذا هو الذي نتكلم فيه نحن في هذا المنهج أو بأن يوضع لها علاقة من الحظ تدل على القول المخيل أو بأن تفهم ذلك بالإشارة".(30) وهناك شيء آخر يفهم ممن كلام حازم،وهو أن التخييل أعلق بالمتلقي،والمحاكاة أعلق بالمبدع،لذلك نراه إذا تحدث عن التخييل كان أميل إلى الحديث عن طرق التأثير له،وإذا تحدث عن المحاكاة كان أميل إلى الحديث عن صورها ونماذجها وكيفية صدورها عن الإنسان.والتخييل عنده يقع في جهات الشعر كلها،(المعنى والفظ الأسلوب والنظم والوزن) وهو أمر وافق فيه ابن سينا،حيث يقول: "والأمور التي تجعل القول مخيلا،منها أمور تتعلق بزمان القول وعدد زمانه وهو الوزن،ومنها أمور تتعلق بالمفهوم من القول ومنها أمور تتردد بين المسموع والمفهوم".(31)

- تحدث حازم عما يعاون التخييل في زيادة قوة تأثيره وهما: مناسبة المعنى للحال التي فيها القول والتعجيب،فيقول:"وأحسن مواقع التخييل أن يناط بالمعاني المناسبة للغرض الذي فيه القول، كتخيل الأمور السارة في التهاني والأمور المفجعة في المراثي،فإن مناسبة المعنى للحال التي فيها القول وشدة التباسه بما يعاون التخييل على ما يراد من تأثر النفس لمقتضاه... ويحسن موقع التخييل من النفس أن يترامى بالكلام إلى أنحاء من التعجيب،فيقوى بذلك تأثر النفس لمقتضى الكلام".(32)

هذا التعريف مستوحى من وصية أبي تمام للبحتري وذلك قوله: فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا،وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة،وقلق الأشواق ولوعة الفراق.وإذا أخذت في مدح سيد ذي أياد فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه،وأبن معالمه وشرف مقامه.

وهي الوصية التي ذكر حازم نفسه بأنها تضمنت جملا مفيدة بما يحتاج إلى معرفته،وأما التعجيب والاستغراب فأصله مما قرأه لابن سينا: "واعلم أن الرونق المستفاد بالاستعارة والتبديل سببه الاستغراب والتعجب وما يتبع ذلك من الهيبة والاستعظام والروعة،يقول حازم:وللنفوس تحرك شديد للمحاكيات المستغربة،لأن النفس إذا خيل لها في شيء مالم

يكن معهودا من أمر معجب في مثله وجدت من استغراب ما خيل لها مما لم تعهده في الشيء ما يجده المستطرف لرؤية مالم يكن أبصره من قبل".(33)

والفرق هو أن ابن سينا يعتبر مجرد الاستعارة أو التبديل قد يكون سببا في إحداث التعجيب،وحازم لايرى التعجيب إلا باعتماد ماهو نادر مستطرف،فعلى الشاعر الاهتداء إلى أمور يقل الاهتداء إلى مثلها إذا أراد التعجيب والاستغراب.

- نظرية التلقي عند حازم القرطاجني

يحتل المتلقي بوصفه هدفا لفعل الشعر مكانة محورية في النظرية الشعرية عند حازم القرطاجني،الذي أقام نظريته في التأثير الشعري على فاعلية التخييل السيكولوجية المؤسسة على جدل العلاقة بين النص الشعري المخيل ومتلقيه،إذ يظهر النص الشعري في إطار هذه العلاقة طرفا مستبدا يمارس سطوته على متلق لا يملك إلا أن يذعن لما يريده،فينفره مما يريده النص أن ينفر منه ويقبل على مايريده على النص أن يقبل عليه،استنادا إلى القاعدة السيكولوجية التي ترى أن الناس يتبعون تخيلاتهم أكثر مما يتبعون علمهم وظنهم(34) وليس غريبا أن نجد هذا الاهتمام بالسامع لدى حازم ما دامت النظرية العربية النقدية وجهت اهتماما فائقا على اثر الشعر في جمهور السامعين،أكثر من اهتمامها بالمبدع أو بفعل الإبداع.ونجد ترسيخ هذه النظرة لدى ابن قتيبة وابن طباطبا وعبد القاهر الجرجاني،وبناءً على تصورات الفارابي وابن سينا حول الفاعلية الوظيفية للشعر بعد الانفتاح على أرسطو فقد جعل الفلاسفة المسلمون حد الشعر مشروطا بوظيفته(35) أما حازم فقد وقف على مجمل الآراء النقدية السابقة حول تأثير الشعر في السامع،سواء الآراء العربية أو اليونانية التي استأثرت باهتمام حازم.وقد ركز بشدة على تأثير الشعر في النفوس فعبارة: النظم...من حيث يكون ملائما للنفوس أو منافرا لها،ومرادفتها الأساليب والمعاني وحسن موقعها من النفوس.تكررت حوالي عشرون مرة في عنوانات القرطاجني،وهو أمر يؤشر على محورية حضور المتلقي في نظريته الشعرية.ففي تعريفه للتخييل كما سبق من أن: التخييل عملية إنتاج للصور في مخيلة السامع وان الأثر المترتب على التخييل يتشكل عبر استجابة نفسية تلقائية يمليها النص المخيل على السامع أو المتلقي بفعل قوة التخييل(36)

حازم القرطاجني ربط بين المعاني الشعرية وقدرتها على إحداث تأثيرات وانفعالات للنفوس،مما يناسبها ويبسطها أو ينفرها ويقبضها.وتحدث عن مواقع المعاني من النفوس،فثمة معاني كما يرى القرطاجني قوية الانتساب إلى طرق الشعر المألوفة قادرة على الوصول إلى الجمهور والتأثير فيه،وهذه المعاني هي التي يجب أن يكون مدار الشعر عليها.وفي بحثه عن العلاقة بين المعاني والأغراض الشعرية وبين الجمهور من حيث علاقة التأثر أو التأثير،فيرى أن موضوعات الشعر يجب أن تكون مرتبطة بالمناحي المألوفة عند الجمهور؛لأنه يرى أن ما فطرت عليه نفوس الجمهور على استشعار الفرح منه والحزن(37)

ويؤيد جواز إيراد المعارف غير المألوفة شرط أن تكون مما فطرت النفوس على الحنين إليه أو التألم منه،وبالجملة تتأثر له النفس تأثر ارتياح أو اكتراث.ويرجع تركيز القرطاجني على ألفة الأغراض وعلاقتها بالأغراض الإنسانية وتأثيرها على النفو، إلى اهتمامه بالجمهور الذي يمثل الهدف الذي يتوجه إليه الشعر.والمتلقين يقعون في طبقتين حسب حازم: طبقة الخاصة،وطبقة الجمهور التي تمثل العامة.والشعر يتوجه إلى ما يشترك فيه الخاصة والجمهور(38) ويقسم القرطاجني الأقاويل المخيلة حسب تأثر الجمهور إلى أربعة أقسام:مما يعرفه جمهور من يفهم لغتها ويتأثر لها/مما يعرفه ولا يتأثر له/مما يتأثر له إذا عرفه/مما لايعرفه ولا يتأثر له إذا عرفه.

وهذا تصنيف مؤسس على النظر إلى المعاني التي تخيلها الأقاويل الشعرية من زاوية استجابة التلقي،ويقول حازم :"إنما الشعر ينظر إليه من ناحية تأثيره فحسب"(39)

إن ربط الشعر بالتأثير أو بقدرة أثارة الانفعال يؤدي للوقوف على عملية اقتران الشعر بالتجربة الحسية؛لأن الانفعال مترتب على الإحساس.يقول القرطاجني: "المعاني التي تتعلق بإدراك الحس هي التي تدور عليها مقاصد الشعر...والمعاني المتعلقة بإدراك الذهن ليس لمقصد الشعر حولها مدار.وهذا الطرح يجعل الشعر يدور حول محور سيكولوجي حسي في مادته وهدفه،أو تشكيله وفي عملية تلقيه.فأغراض الشعر ومعانيه إنسانية ذات طابع نفسي،بمعنى أنها تثير في نفوس السامعين انفعالات ارتياح أو اكتراث أو سيشعر منها الفرح أو الحزن(40)

- خاتمة:

في ختام هذه الجولة العلمية المتواضعة،لا نملك سوى الإشادة بتلك الانتفاضة الفكرية البناءة التي خاضها القرطاجني محاولا أن يعيد للأدب عموما والشعر خصوصا تلك المكانة المرموقة التي حظي بها في دنيا الناس،قبل عصور مديدة سبقت عصر حازم.

بالفعل يمكن اعتبار القرطاجني رابطا حقيقيا بين النقد العربي والنقد اليوناني،الذي استطاع أن يقتحم ميدان الأدب العربي من خلال شروحات ابن سينا والفارابي وابن رشد، غير أن مشروع القرطاجني تمكن من تحقيق التجاوز أمام الأنموذج الأرسطي الذي وُضِعت مقاييسه إنطلاقا من مناخ الثقافة الهيلينية ومضامين الشعر اليوناني،بالرغم من أنه (الأنموذج الأرسطي) حاول في الوقت نفسه أن يُوجِد معايير يمكن تطبيقها على شعر أي أمة.

حازم القرطاجني كان أكثر اقترابا من الثقافة العربية؛من خلال مراعاة خصوصيتها الحضارية والفكرية والعقائدية أيضا.باعتبار أن أرسطو في تنظيره لقوانين الشعر الكلية لم يكن قد اطلع على ثقافة العرب أو شعرهم،لذلك فإن ما قدمه من قوانين يعتبر ناقصا بالنظر إلى النص الشعري العربي،ومن ثمة فإنه لا يمكن أن يُعْتَمَد كأنموذج مثالي لا يصح الحياد عنه.

يطيب لي في الأخير أن أشير إلى رأي الدكتور جابر عصفور الذي نوه بتكامل المفهوم النقدي عند حازم القرطاجني،واعتبره التركيب لمختلف المحاولات النقدية السابقة،في إطار شمولية تستوعب سائر المعطيات النقدية.

الهوامش :

01- منهاج الأدباء وسراج البلغاء،حازم القرطاجني،تح،محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي ط3،1986،ص:.20

02- المرجع نفسه،ص: .124

03- المرجع نفسه،ص:.124،125

04- 05- المرجع نفسه،ص:125

06- المرجع نفسه،ص:124

07-08-.حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي،د.عمر إدريس عبد المطلب،الجنادرية للنشر والتوزيع،2009،ص:.91

9-10- المرجع نفسه،ص:.90

11-12-13-.نظرية الأدب الأرسطية العربية، جريجور شولر ،دار جرير للنشر والتوزيع،ط.2008،1

14- ظاهرة الشعر عند حازم،د.محمد الحافظ ،المجلد الثاني،دار الأمان،ط2008،1 ،ص: 638،639

15- المرجع نفسه،ص: 640

16- منهاج البلغاء وسراج الأدباء،ص:190

17- المرجع نفسه،ص: 642،643

18- منهاج البلغاء وسراج الأدباء،ص:98

19- حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي، د.عمر إدريس عبد المطلب ،ص:90

20- المرجع نفسه،ص:91

21-22- المرجع نفسه،ص: 92

23- المرجع نفسه،ص: 93

24-25- ظاهرة الشعر عند حازم،سبق ذكره،ص:661

26- منهاج البلغاء وسراج الأدباء،ص:84

27- ظاهرة الشعر عند حازم،سبق ذكره،ص:635

28- المرجع نفسه،ص:636

29- الشفاء،ابن سينا،تح:الأب فنواتي،محمود الخضيري،فؤاد الأهوافي،وزارة المعارف العمومية،مصر،ط1،ص:143

30-31-المتلقي عند حازم القرطاجني،زياد صالح الزعبي،مجلة الجامعة الإسلامية،المجلد التاسع،العدد الأول339، ص2001،363، ص:.345

31- الشفاء،ابن سينا،ص:140

32- الشفاء،ابن سينا،ص:140

33- منهاج البلغاء وسراج الأدباء،ص:102

34-35 المتلقي عند حازم القرطاجني،زياد صالح الزعبي،،ص:.346

36-37- المرجع نفسه،ص :.347

38-39-40- المرجع نفسه،ص :349